



في رحاب التّوراة

دراساتٌ وجِواراتٌ روحانيةٌ مُعمّقة في النّصوص التّوراتيّة الأسبوعيّة مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
<https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation/vayeshev/how-to-change-the-world/>

"فايشيف" هو النّصّ الأسبوعي التاسع من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النّصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع السابع والثلاثين وينتهي بالآية الثالثة والعشرين من المقطع الأربعين

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

كيف نُغيّرُ العالمَ؟

توجدُ مقولةٌ للحاخام موشيه/موسى بن ميمون تعتبرُ من أقوى المقولات وأكثرها تأثيراً في عالم المؤلّفات الدينية، حيث قالها في سياق توضيح "هَلخوت تشوفاه" (تشريعات وقوانين التوبة) تبعاً للشريعة اليهودية. وتبعاً لما فسّرهُ في هذه المقولة، فإن الحُكم على العالم عموماً والإنسان خصوصاً مُقتَرَنٌ بالصّفة التي تتّسم بها غالبية أفعالنا، فيقول في هذا الصّدّد:

"يجبُ على كلّ إنسان أن يُقيّمَ نفسه كلّ عامٍ على اعتبار أن أعماله - وأعمال البشر جميعاً - مقسومة إلى نصفين مُتكافئين، النصفُ الأوّل هو الأعمال الصالحة والآخر هو الأعمال الطالحة. بالتالي فإن أي عمل يُقدّم عليه الإنسان من شأنه أن يُخلّ بتوازن الصلاح والصلاح، لا في حياته فحسب، بل في حياة البشرية جمعاء.¹ (في حال ارتكب عملاً طالِحاً فإن كفة الميزان سترجح للأعمال الطالِحة، وبهذا سيكون سبباً فيما يحل من خراب ودمار به وبغيره من البشر. وفي حال قام بأمرٍ صالحٍ، فإن الكفة ستميل لصالح الأعمال الصالحة، الأمر الذي سيُجلِبُ الخير والنّجاة له ولغيره من البشر).

بالتالي فإننا نستطيعُ دوماً أن نصنّعَ فرّقاً هائلاً في كل شيء، وهذا أحد الأسس التي يجبُ أن يستند إليها تفكيرنا كبشر. في الوقت نفسه، توجدُ بعضُ الأمور التي قد تبدو لنا غريبةً إذا ما فكّرنا بها من مُنطلق المنظور الذي يبدو لنا العالم من خلاله، فجميعنا نعلم بأنه حين ينظر أحدنا لنفسه سيجدُ واحداً من سبعة بلايين إنسانٍ على سطح هذا الكوكب في وقتنا الحالي، بالتالي من الطبيعي أن يتبادر إليه هذا السؤال: ما هو الفرقُ الذي بإمكاننا أن أصنعهُ في هذا العالم؟ إن الإنسان ممّا يكادُ يكون كالموجة في المحيط، أو كذرة رملٍ على شاطئ البحر، بل ولا يتجاوزُ في حجمه مقدار ذرة غبارٍ في هذا الكون السّرمديّ، بالتالي هل من المعقول أن يُغيّرَ فعلٌ واحدٌ من أفعالنا مسار حياتنا بأكمله، بل ومسار البشريّة جمعاء؟ الإجابة هي نعم بحسب ما يُخبرنا هذا النّصّ الأسبوعيّ من نصوص التوراة.

بالرجوع إلى قصة يعقوب/يعقوب وأبنائه وتطور أحداثها، فإننا سنجد أن حالة التوتر بين الأبناء كانت في تصاعد مستمر كاد يصل إلى مرحلة الغنف. لقد كان يوسف هو الابن الحادي عشر من أصل اثني عشر ابناً ليعقوب، وكان ابنه المفضل بين البقية، فأحبه يعقوب أكثر من غيره لأنه كان الابن الذي أنجبه وهو طاعن في السن. كما كان في الوقت نفسه ابن زوجته الأولى التي أحبها جداً راحيل، لهذا كان يعقوب "يحب يوسف أكثر من جميعهم" تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين. وكان باقي الأبناء يعلمون هذا جيداً، مما جعلهم ممتعضين جداً من محبة أبيهم لأخيهم يوسف، الأمر الذي أشعل نار الحسد والغيرة في قلوبهم. لقد استفزتهم أحلام يوسف وطموحاته بالعظمة، كما أن رؤية يوسف وهو يرتدي الثوب المطرز المميز بالألوان والرسوم الذي منحه إياه والده يعقوب كان يجعلهم يستشيطون غضباً كلما رأوه.

ثم جاءت الفرصة التي يحاول الأبناء اغتنامها للتخلص من يوسف، حين كانوا يرعون الماشية بعيداً عن بيتهم، فينظرون ليوسف وهو قادم من بعيد للاطمئنان عليهم بعد أن طلب منه والده القيام بذلك. حينها كانت مشاعر الغيرة والغضب في صدورهم قد بلغت أوجها، فقرروا أن ينتقموا منه شرّ انتقام، انتقاماً ذا طابع عنيف. وعندما رأوه قادمًا قالوا لمحدثين بعضهم البعض: "هو ذا صاحب الأحلام جاء. فتعالوا الآن نقتله ونطرحه في بعض الآبار، ونقول وحش رديء أكله، ونريه ما يكون من أحلامه" مثلما أخبرنا الآيتان التاسعة عشرة والآية العشرون من المقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين.

لكن واحداً من بين الإخوة يعترض على ما ينوي باقي الإخوة القيام به: إنه رؤوفين/روبن، حيث أدرك أن ما هم مقدمون عليه كان الخطأ بعينه، لهذا امتنع عن المشاركة في مؤامرتهم. وخلال مرحلة معينة تحدثنا التوراة عن أمر استثنائي من خلال عبارة يتضح لنا جلياً أثناء قراءة القصة بأنها حرفياً لم تكن صحيحة، فتقول التوراة في الآية الواحدة والعشرين من نفس السفر ونفس المقطع: "فسمِعهم رؤوفين، وخلصه من بين أيديهم، وقال لا نقتل نفساً".

إننا نعلم جيداً بأن هذا ليس صحيحاً من خلال معرفتنا للأحداث التالية للقصة، فقد أدرك رؤوفين بأنه لا يستطيع بمفرده الوقوف في وجه إخوته، فتبادرت إلى ذهنه حيلة لإحباط مؤامرتهم مقترحاً عليهم أن يرموه حياً في أحد الآبار ليموت فيه بدلاً من أن يقتلوه، وبهذه الطريقة لن يتحملوا المسؤولية المباشرة عن مقتله. في الحقيقة كان رؤوفين ينوي العودة إلى البئر بعد رحيل إخوته لكي يتقن يوسف، بالتالي عندما تقول التوراة "فسمِعهم رؤوفين، وخلصه من بين أيديهم" فهذا يعني أن الله عز وجل يعتبر "النية الحسنة بمثابة العمل الصالح"²، فرؤوفين كان ينوي فعلاً إنقاذ أخيه يوسف، لكنه لم يتمكن من ذلك لأنه عاد إلى البئر بعد فوات الأوان، فيوسف كان قد بيع للإسماعيليين كعبد. وفي هذا السياق يقول أحد تفاسير المدراس*:

"لو عَرَف رؤوفين بأن الله عز وجل سيكتب عنه مثلما جاء في الآية التوراتية "فسمِعهم رؤوفين وخلصه من بين أيديهم"، لكان سيحمل أخيه يوسف على كتفيه ليعيده إلى أبيه"³.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما معنى ذلك؟

فلنفكر قليلاً فيما كان سيحدث لو قام رؤوفين بإنقاذ يوسف من البئر: لن يكون يوسف عبداً يتباعه أحد، ولن يذهب إلى أرض مصر، ولن يعيش في بيت بوتيفار (عزيز مصر تبعاً الرواية القرآنية)، ولن تنجذب إليه زوجة بوتيفار، ولن يُلقى به في السجن بثمة باطلة، ولن يتمكن من تفسير أحلام كبير السقاة وكبير الطباخين، بالتالي لن تكون أمامه فرصة لتفسير أحلام فرعون ولن يفتح أمامه الباب ليكون وزيراً من كبار وزرائه، ولن يتمكن من جلب عائلته ليسكنوا أرض مصر.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: المدراس هو مصطلح يُشير إلى التفاسير اليهودية الموسعة للكتاب اليهودي المقدس (التناخ)، بحيث تستند هذه التفاسير إلى نمط حاخامي شائع الاستخدام في كتاب التلمود (التلمود هو النص المركزي في الحاخامية اليهودية ويعد المصدر الأساسي للديانة اليهودية وللشريعة اليهودية المعروفة باسم الهالاخاه). ومن ناحية لغوية فإن كلمة مدراس تعني تفسير النص بالنص، كما تعني أيضاً الدراسة، وهي مشتقة من الجذر "د.ر.ش" في اللغة العبرية، والذي يحمل في طياته أكثر من معنى، منها البحث المتأن والاستفسار والطلب، وتظهر اشتقاقات كثيرة لهذا الفعل على نحو متكرر في الكتاب اليهودي المقدس. كما أن التفاسير المدراسية والقراءات الحاخامية للنصوص الدينية تهدف إلى البحث عن القيمة الموجودة في النصوص والكلمات والحروف أيضاً، وهي تعتمد التفاسير المدراسية على أسلوب طرح الأسئلة حول النص الديني، وفي بعض الأحيان تُجيب على تلك الأسئلة، وفي أحيان أخرى تترك المجال مفتوحاً أمام القارئ ليجيب عنها بنفسه. والتفسير المدراسي يُعد نهجاً يهودياً مميزاً، فهو لا يُحاول فهم الكلمات الموجودة في النص الديني وما وراءه من أفكار فحسب، بل يذهب بعيداً ليتطرق إلى ما هو غير موجود في الآية، أي كل حرف وكل كلمة لم تُذكر في هذا النص. إن الأسلوب المدراسي يتضمن تفسيرات قديمة للتوراة المكتوبة والشفهية (القوانين والمناسك الدينية التي انتقلت بالمشافهة)، بالإضافة إلى الكتابات الحاخامية التي لا تتمحور حول القوانين (أعاداه) أو التشريعات الدينية اليهودية (الهالاخاه) التي تجسّد بالعادة تفسيراً مكتملاً لتفسير نصي معيّنة من الكتاب اليهودي المقدس (التناخ).

ومن باب التأكيد على وقوع تلك الأحداث، فقد أخبر الله عزّ وجل أفرهام/إبراهيم سلفاً بما سيحدثُ مُستقبلاً، حين خاطبه في الآية الثالثة عشر من المقطع الخامس عشر من سفر التكوين والتي تقول: "فقال لأفرهام، أعلم علماً، أن نسلك سيكون غريباً، في بلد ليس لهم، فيستخدمونهم ويعذبونهم تماماً أربعمئة سنة". لقد أخبره بأن بني إسرائيل سيصبحون عبداً في مصر، وهذا ما حدث بالفعل، لكن على الأقل لم يكن ليحدث هذا لولا الخلافات والنزاعات بين بني إسرائيل أنفسهم، ولكان بالإمكان تجنّب صفحة العبودية التي شكّلت جانباً مُخجلاً من صفحات التاريخ اليهودي.

لو كان رؤوفين يعلم ما نعلمه الآن، لو كان فقط بمقدوره قراءة التوراة! لكن استحيل علينا قراءة وفهم مضمون كتاب يتحدث عن عواقب أفعالنا على المدى البعيد، كما أنه ليس بمقدورنا أبداً معرفة تأثير تصرفاتنا على الآخرين.

وهنالكَ قصّة مؤثّرة جداً أريد أن أستحضرها في هذا السياق، قصّة تعودُ إلى عام 1966م، حين انتقل طفلٌ أمريكي أسودٌ من أصولٍ أفريقية برفقة عائلته إلى أحد الأحياء التي يسكنها البيض فقط في مدينة واشنطن 4، وكان ذلك أمراً غير مسبوقٍ على الإطلاق آنذاك. جلسَ الطفل برفقة إخوته وأخواته على عتبات البيت مُنتظرين من سيأتي ليرحب بهم من الجيران وسُكّن ذلك الحيّ، لكن مع الأسف الشديد لم يأت أحد ليرحب بهم، فكان الجميع يُمزون مُحذّفين بالأطفال غير مُكترئين بوجودهم أصلاً. لم يبتسم أحدٌ في وجوههم حتى، ولم يُعربهم أحدٌ أي انتباه.

ولوهلة بدأ الطفل يستحضر في مخيلته جميع القصص المرعبة التي سمعها عن المعاملة السيئة التي يتلقاها السود على يد الرّجل الأبيض، بدت له تلك القصص وكأنها حقيقة. وبعد بضعة سنواتٍ كتبتُ هذا الطفل عن أيامه الأولى في البيت قائلاً: "كنتُ أعلم تماماً أنه غير مُرحّب بنا في هذا الحيّ، وكنتُ أعلم بأن وجودنا غير مرغوب به هنا، كنتُ أعلم أيضاً بأنه لن يكون لي أصدقاء هنا. كنتُ أدركُ تماماً أنه ما كان يجبُ علينا الرّحيل إلى هذا الحيّ".

في الوقت نفسه، وبينما كانت تختلجها تلك المشاعر السلبية، مرّت امرأة من سُكّن الحي من الشارع على الجهة المقابلة لبيتها، فاقتربت من الطفل بابتسامة لطيفة قائلة له: "أهلاً وسهلاً بكم!"، وسرعان ما دخلت إلى بيتها جالبةً لهم بعد بضعة دقائق صينية من الحلويات وشطائر المربي والجبنه وبعض المشروبات وقدمتها للأطفال تعبيراً عن ترحيبها بهم في الحيّ. يوضّح ذلك الطّفل بأن ما قامت به تلك المرأة قد غير حياته إلى الأبد، لقد منحته تلك المرأة شعوراً بأنه ينتمي إلى هذا المكان بعد أن شعر لوهلة بأنه منبوذٌ ولا ينتمي له أبداً. لقد جعلته يشعر بأنه بمقدور الرجل الأسود أن يشعر وكأنه في بيته حتى وإن كان يعيش في حيّ للبيض فقط، خاصة في ظلّ العلاقات العرقية المتوتّرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الحقبة الزمنية. في الحقيقة، لقد جعلته تلك المرأة يؤمنُ بإمكانية أن يطغى عمى الألوان على طبيعة العلاقات بين البشر. ومع مرور الوقت ازداد شعورُ ذلك الطّفل بالاحترام والتبجيل لتلك المرأة، لكن الحدث الذي لم يفارق ذاكرته أبداً هو قُدموها إليهم وترحيبها بهم بمنتهى المحبة والعفوية، هذا الترحيب الذي هدم جداراً من الفصل بينهم، وحول الغرباء إلى أصدقاء.

وهذا الطّفل هو الكاتب والأديب ستيفن كارتر والذي أصبح لاحقاً بروفيسوراً في القانون في جامعة ييل الأمريكية، وكان من ضمن أعماله كتابٌ ألفه ليتحدّث عمّا حدث معه في ذلك اليوم بالتحديد، مُطلقاً عليه اسم (Civility). وعبر صفحات كتابه يوضّح بأن تلك المرأة تُدعى سارة كستانباوم، والتي توفيت بعمرٍ مُبكرٍ مع الأسف الشديد، موضحاً بأن كون تلك المرأة يهوديةً مُدنيّة لم يكن من قبيل الصدفة، موضحاً بأن "تلك المُعاملة الحسنة هي جزءٌ أصليٌ من العادات والتقاليد اليهودية، ويُطلق عليها مُصطلح "حيسيد" باللغة العبرية، ويُقصدُ بها كل عمل يأتي من باب الكرم والكرامة والإحسان، هذا المبدأ المُتجدد من حقيقة أن البشر مخلوقون بصورة الله عزّ وجل. إن تلك المُعاملة الحسنة هي جزءٌ لا يتجزأ من مبدأ الحيسيد في الثقافة اليهودية. إنها بالفعل كذلك، لأن الحياة تتطلب منا أن نُعامل جيراننا مُعاملة حسنة، بما فيهم الغرباء عمّا حتى لو كان ذلك أمراً شاقاً بعض الشيء". ويتابع ستيفن عبر صفحات كتابه قائلاً:

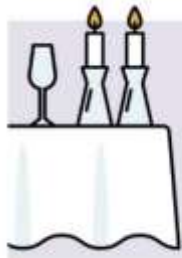
"لا زالَ مذاقُ شطائر المربيّ والجبنه في فمي حتى يومنا هذا، لا زلتُ أستشعرُ حلاوتها وانسيابها فوق لساني حين أغلقُ عيني، هذا المذاقُ الساجِرُ في ظهيرة ذلك اليوم الصيفي الحار جعلني أدركُ بأن تصرفاً لطيفاً متواضعاً نابعاً من القلبِ كغفيلٍ بأن يغيّر حياتنا إلى الأبد".

وتبعاً لما تذكره المشناه* (مجموعة النصوص المكتوبة للتوراة اليهودية الشفهية والتي تُفصلُ العديد من المواضيع المذكورة في التوراة)، فإن حياةً واحدة تُعادلُ الكونَ بأكمله⁵، وحين تُغيّر حياة إنسانٍ واحدٍ فإنك تُغيّرُ الكونَ بأسره، وهكذا نصنعُ الفرق: حياةً واحدة، يوماً واحداً، تصرفاً واحداً. إنه لمن الصعب علينا أن نعلمَ سلفاً مدى تأثير تصرف معين من تصرفاتنا على الآخرين، وفي بعض الأحيان يستحيلُ علينا ذلك. والسيدة سارة كستانباوم لم تحظَ بفرصة قراءة الكتاب الذي تحدّث عن تأثير مُعاملتها الحسنة على الآخرين، تماماً مثلما حدثت مع رؤوفين الذي لم يحظَ بفرصة قراءة الكتاب الذي تحدّث عن تأثير ما قام به على المدى البعيد، لكن سارة قامت بما قامت به ولم تتردّد للحظة، وهذا ما يجبُ علينا أن نكونَ عليه مثلما يوضّح لنا الحاخام موشيه بن ميمون، لأن كلَّ تصرفٍ نقوم به من شأنه أن يُحدث اختلالاً في توازن حياةٍ أحدٍ ما بل وفي حياتنا نحنُ أيضاً.

إننا كبشر لسنا كائناتٍ معدومة القيمة، نحنُ لسنا صِفراً على اليسار، وبإمكاننا دوماً أن نصنعَ فرقاً في هذا العالم، وعندما نقومُ بهذا فإننا نُصبحُ بمثابة شُركاء لله عزّ وجلّ على طريق الخِلاص، لأننا نجعلُ العالمَ يقتربُ أكثر وأكثر من الصّورة التي يجبُ أن يكونَ عليها بالفعل.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: كلمة مشناه تعني باللغة العبرية الدراسة من خلال التكرار ودراسة موضوع معين ومراجعتة. ويقصد بها اصطلاحاً أول مجموعة رئيسية مكتوبة للتقاليد والسير التوراتية الشفهية، وهي أول عمل رئيسي للنصوص الحاخامية. وتمت كتابة المشناه وتدقيقها وتنقيحها على يد الحاخام يهوداه هتسي في أرض إسرائيل بداية القرن الثالث بعد الميلاد، خلال حقبة زمنية شهدت اضطهاداً لليهود، و مرور الوقت خلال هذا الاضطهاد أدى إلى زيادة احتمالية اندثار السير والتقاليد التوراتية الشفهية التي تعود إلى عهد الهيكل اليهود الثاني (516 ق.م حتى 70م). وأغلب محتوي المشناه مكتوب بلغة عبرية خاصة بالمشناه، لكن بعضاً منها مكتوب باللغة الآرامية. وتنقسم المشناه لستة أجزاء (سداريم): زراعيم (الزراعة) الذي يتطرق للشرايع المتعلقة بأرض إسرائيل - موعيد (المواعيد) الذي يتطرق لشرايع الإجازات والأعياد والصيام - نشيم (النساء) الذي يتطرق لشؤون الأسرة والزواج والطلاق وغير ذلك... - نزيقن (الأضرار) الذي يتطرق للقوانين المدنية والجناحية والنظام القضائي اليهودي - قوداشيم (المقدسات) الذي يتطرق لشؤون الهيكل والمقدسات - ظهروت (الطهارة) الذي يتطرق لشؤون الطهارة.

1. المصدر: 3:4 Mishneh Torah, Hilkhoh Teshuva, Maimonides
2. المصدر: 1:4 pe'ah, Tosefta
3. المصدر: 13, Tanhuma, Vayeshev
4. المصدر: (New York: Basic Books, 1999) 61-75 Civility, Stephen Carter
5. المصدر: Mishna Sanhedrin 4:5 - original manuscript text



حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأَمُّلِ

- 1- برأيك هل يجبُ أن نُمَتِّحَ الفضلَ لمجرد امتلاكنا النوايا الحسنة حتى وإن لم تُقدِّمِ إلى النتائج المرجوة منها؟
- 2- هل سبقُ وأن أحدثت تصرفاً صغيراً من شخصٍ مقربٍ منك (أو حتى من شخصٍ غريب) تغييراً جذرياً في حياتك؟
- 3- اذكر تصرفاً قمت به خلال هذا الأسبوع من شأنه إحداث تغييرٍ في حياة شخصٍ معين بطريقة معينة؟ وماذا ستفعلُ الأسبوع القادم حتى تُحدث تغييراً في حياة شخصٍ آخر؟

• These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/vayeshev/how-to-change-the-world/>

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University

